آداب
مجلة كلية الآداب جامعة الخرطوم
Adab
Journal of Faculty of Arts. University of Khartoum

ISSN 0302- 8844

مجلة علمية نصف سنوية محكمة. تصدر عن كلية الآداب – جامعة الخرطوم

العدد ٤٠. يوليو ٢٠١٨م

هيئة التحرير	الهيئة الاستشارية
	بروفيسور. إبراهيم الحاردلو
	بروفيسور. عز الدين الأمين
رئيس هيئة التحرير	بروفيسور. على عثمان محمد صالح
د. سلمى عمر السيد عمر	بروفيسور. جلال الدين الطيب
سكرتير هيئة التحرير	بروفيسور. عمر هارون الخليفة
بروفيسور أزهري مصطفى صادق	بروفيسور. عبد الرحيم على
أعضاء هيئة التحرير	بروفيسور. فدوى عبد الرحمن على طه
د. قمر الدولة عباس البوني	بروفيسور. عبد الرحيم مقدم
د. عمر أحمد عمر	دكتورة. سمية أبو كشوة
د. عفاف محمد الحسن	دكتور. عبدالله حس زروق
أ. آمال عبد الماجد محمد	دكتور. يونس الأمين
	دكتورة. محاسن حاج الصافي
	دكتور. حسن على عيسي
	دكتورة. أم سلمي محمد صالح
	دكتورة. رضية آدم محمد

توجه المراسلات باسم رئيس التحرير: كلية الآداب جامعة الخرطوم. ص. ب ٣٢١

أو ترسل على البريد الإلكتروني: adabsudan@gmail.com

الإشراف العام والتصميم والإخراج: أزهري مصطفى صادق

المحتويات

القسم العربي

نونية المثقب العبدي. قراءة في المعاني والموضوعات . د.عبدالله محمدأحمد. أ. معني النور الأمين حسب الكريم ١

أسلوب الإبدال في القرآن الكريم. أ. محمد قاسمي..... ٢٦

التحولات السياسية واثرها في أزمة الهوية وتأرجحها في في رواية (عشاق وفونوغراف وأزمنة). أ.م. د. إسراء حسين جابر..... ٣٩

الشعر والدين والأخلاق بين النقاد والفلاسفة. ألاء ياسين دياب..... ٦١

القسم الأجنبي

An Analysis of the Spelling Errors. In the Written English of Saudi University Students. Babiker Idris El-Hibir, PhD. and Nouriya Al-Muhaidib, PhD. 1

قواعد النشر وشروطه

آداب مجلة علمية محكمة تصدر في يونيو وديسمبر من كل عام عن كلية الآداب جامعة الخرطوم وتقبل البحوث في مجالات الآداب والفنون والعلوم الإنسانية مع مراعاة الآتي:

١. ألا يكون البحث المقدم للمجلة قد نشر أو قدم للنشر في مكان آخر.
٢. تخضع البحوث المنشورة في هذه المجلة للتحكيم العلمي الذي يتولاه أساتذة مختصون وفق ضوابط موضوعية.
٣. تسلم نسختان مطبوعتان من البحث على معالج نصوص (حاسوب) مع أسطوانة مدمجة تحتوي على البحث. أو ترسل على البريد الإلكتروني adabsudan@gmail.com.
٤. يراعى في البحث أن يتراوح حجمه بين ٣٠٠٠-٥٠٠٠ كلمة ، ويرفق الباحث مستخلصاً باللغتين العربية والإنجليزية لبحثه بما لا يتجاوز صفحة واحدة (٢٠٠) كلمة ، ويذيل هذا المستخلص بما لا يزيد على خمس كلمات مفتاحية تبرز أهم المواضيع التي يتطرق إليها البحث. ويراعى أن تحتوي الصفحة الأولى من البحث على عنوان البحث واسم الباحث ، والجامعة أو المؤسسة الاكاديمية وعنوان البريد والبريد الالكتروني.
٥. تنشر المجلة مراجعات الكتب بحدود (٢٠٠٠) كلمة كحد أقصى ، على ألا يكون قد مضى على صدور الكتاب أكثر من عامين ، ويدون في أعلى الصفحة عنوان الكتاب واسم المؤلف ومكان النشر وتاريخه وعدد الصفحات. وتتألف المراجعة من عرض وتحليل ونقد، وأن تتضمن المراجعة خلاصة مركزة لمحتويات الكتاب. مع مراعاة الاهتمام بمناقشة مصداقية مصادر المؤلف وصحة استنتاجاته.
٦. أن يوثق البحث علمياً بذكر المصادر والمراجع التي اعتمدها الباحث في نهاية البحث. وترتب المراجع في نهاية البحث هجائياً على ألا تحتوي قائمة المراجع إلا على تلك التي تمت الإشارة إليها في متن البحث. يشار إلى جميع المصادر في متن البحث المكتوب بلغة أجنبية كالطريقة التالية (اسم العائلة. سنة النشر. الصفحة او الصفحات) مثال: (Adams. 2000. 14).
٧. تعبر البحوث التي تنشرها المجلة عن آراء كاتبيها ، ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر المجلة أو أية جهة أخرى يرتبط بها صاحب البحث.
٨. لهيئة التحرير الحق في إدخال التحرير والتعديل اللازمين على الأبحاث. وتعد هيئة التحرير رأي محكم المقال نافذاً بالنسبة لنشر البحث أو عدمه أو إدخال التعديلات التي يوصي بها المحكم.

نونية المثقب العبدي

قراءة في المعاني والموضوعات

د.عبدالله محمدأحمد
أستاذ مشارك قسم اللغة العربية كلية الآداب جامعة الخرطوم
أ. معني النور الأمين حسب الكريم
محاضر قسم اللغة العربية كلية الآداب جامعة الخرطوم

المستخلص

يشتمل هذا البحث على دراسة تحليلية لقصيدة المثقِّب العبدي النونيَّة المفضلية قام فيها الباحثان باستقراء ما كتبه علماء التاريخ والجغرافيا وعلماء الأنساب وسمات البيئة مُستعينين بها في تحليل النص فتناول وصف المرأة والهودج والرحلة والراحلة وخطاب المثقِّب لعمرو بن هند في مدحه وعتابه له.

اشتهرت هذه القصيدة أكثر من غيرها من شعر المفضليات لما اشتملت عليه من رقَّة الألفاظ ولطيف المعاني، وكان أبو عمرو بن العلاء يستجيد هذا القصيدة، ويقول:" لو كان الشعر مثلَها لوجب على الناس ان يتعلَّموه" (ابن قتيبة، ١٤٢٣هـ، ١/ ٣٨٣). ويقول طه حسين عن شعر المثقِّب:" ... ولكني أراه جميلاً شديد التأثير في النفوس يثير كثيراً من الخواطر الشاحبة الحزينة، التي لا تخلو من أن تُثير لذَّات شاحبة حزينة مثلها، وما رأيك في صوتٍ تحملُه القرون الطوال حتى تنتهي به إليك" (حسين، ١٩٢٧، ١/ ١٦٤).

يبدأ قصيدته بالغزل والحنين، ثمَّ يتخلَّص إلى وصف الناقة والبيداء، ثمَّ ينتهي إلى ما أراد من العتاب في هذه القصيدة.

وشاعرُها المثقب العبدي شاعر جاهلي قديم ينتمي إلى العبابدة وهم بطن من بطون عبد القيس، واسمه عائذ بن محصن وقيل اسمه شأس بن عائذ بن محصن بن ثعلبة بن وائلة بن عدي بن زهر بن منبه بن نكرة وهي القبيلة بن لكيز بن أفصى بن عبد القيس بن أفصى. وسمي المثقِّب ببيت قاله (المرزباني، ١٩٨٢، ص ٣٠٣).

ومن الشعراء الذين لقبوا بأبيات قالوها المرقش، واسمه عمرو بن سفيان، وهو مرقش الأصغر. وسمي مرقشاً لأن وجهه كان منقطاً ذكر ذلك النشَّابي الإربلّي. وأنشد له (الإربلّي، د. ت، ص ٢-٣):

كما رقش في ظهرِ الأديمِ قلمْ

ومنهم الممزّق لقوله (المرجع السابق ص ٣):

وإنْ كنتُ مأكولاً فكنْ أنتَ آكلي وإلاّ فأدركني ولما أُمزقِ ومنهم المخرّق

نسب نفسه إلى الممزق، وقال (نفسه، ص ٣):

أنا المخرّقُ أعراضَ اللئامِ كما كانَ الممزّقُ أعراضَ اللئامِ أبي

ومن غريب الاتفاق أن يلقَّب ثلاثةٌ من أسرة واحدة بصيغة اسم الفاعل من الفعل الثلاثي المضعَّف فالممزّق خال المثقِّب والمخرّق ابن خالته.

ديار بني عبد القيس في بلاد البحرين على صفتها القديمة بلاد واسعةٌ شرقيُّها ساحل البحر، وجوفُها متصل باليمامة، وشماليُّها متَّصل بالبصرة، وجنوبيُّها متصل ببلاد عمان، وقاعدتها هجر، وأهلُها عبد القيس ومن بلاد البحرين الأحساء والقطيف وبيشة والزارة والخطُّ وهو الذي تنسب إليه الرماح الخطيَّة (عبد المنعم الحميري، ١٩٨٠، ص ٨٢). وقال الشاعر في مدح عبد القيس (عماد الدين الأصبهاني، د. ت، ٢/ ٤٢):

بهم أصبحَتْ عَــدْنَانُ للفخـر مَعْدِناً وحـازَتْ مَعَدُّ الفَخْـرَ وافتخرَتْ أُدُّ
وأضحى لعبد القيس فضلٌ على الورى كأنَّ لفضل القيس كلَّ الورى عَبْدُ

وفي البحرين شعر كثير جيد وفصاحة (ابن سلّام، د.ت، ١/ ٢٧١). وكان المناذرة قد ولَّوا بني عبد القيس أمر سوق المشقَّر وكانت ملوك فارس تستعملهم عليها كما يستعملون بني نصر على الحيرة وبني المستكبر على عمان، وكانوا يصنعون فيها ما يريدون، ويسيرون بسيرة الملوك بدُومةَ في البيع، وكانوا يَعشُرونها أي يَمكِسونها (الأزمنة والأمكنة، ١٤١٧هـ، ص ٣٨٣).

ويتناول الباحثان في هذه الأسطر وصف المرأة والهودج والرحلة والراحلة وخطاب المثقِّب لعمرو بن هند في مدحه وعتابه له.

أوَّلاً: وصف المرأة:

أَفاطِمُ قَبلَ بَينِكِ مَتِّعيني وَمَنعُكِ ما سَأَلتُك كأَنْ تَبيني

وأَيْ والهمزة للقريب (ابن يعيش، ٢٠٠١م، ٥/ ٤٨). وهو قرب معنوي. وفاطم مرخَّم من فاطمة أو هو على ما ذكره، فالعرب تسمي فاطم بغير تاء التأنيث. وفاطم للَّتي فُطِمت هي (أبو البركات الأنباري، ١٩٨٧م، ص ٣٦٣). وابتداء الشعراء بقولهم: (أفاطم)، كثير يقول امرؤ القيس (ديوانه، د. ت، ص ١٢):

أَفاطِمَ مَهلاً بَعضَ هَذا التَدَلُّلِ وَإِن كُنتِ قَد أَزمَعتِ صَرمي فَأَجمِلي

ويقول بشر بن عوانة الأسدي (ابن الشجري، ١٩٩١م، ٢/ ٤٧٩):

أَفاطم لَو شَهدت بِبَطن خَبْتٍ وَقَد لاقى الهَزبرُ أَخاكَ بِشْرَا

وقال المرقش الأصغر (ديوان المرقشين، ١٩٩٨، ص ٩٩):

أَفاطِمَ لَوْ أَنَّ النِّساءَ بِبَلْدَةٍ وأَنْتِ بأُخْرَى لاتَّبَعْتُكِ هائِما

وقد ورد فيه بغير تاء في غير النداء، كقول المعري (سقط الزند، ١٩٥٧م، ص ٢٨٥):

ولا تَدْفِنِها الجَهْرَ بل دَفْنَ فاطِمٍ ودَفْنَ ابنِ أرْوَى لم يُشَيّعْ بإعْوال

وهو يشير إلى دفن السيدة فاطمة الزهراء ودفن الخليفة عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنهما سرًّا.

وابتداؤه باسم المحبوبة من غير كنية يدلُّ على أنَّه في شرخ الشباب كما في قول ابن العشرين طرفة وهو في سُكر الشباب (ديوانه، ٢٠٠٣م، ص ٢٥):

لِخَولَةَ أَطلالٌ بِبُرقَةِ ثَهمَدِ تَلوحُ كَباقي الوَشمِ في ظاهِرِ اليَدِ

وغالباً ما يَكنيها إذا كان شيخاً ويذكر أيامَ وصلها ويتحسَّرُ عليها، كما في قول زهير (ديوانه، ١٩٦٤، ص ٤):

أَمِن أُمِّ أَوفى دِمنَةٌ لَم تَكَلَّمِ بِحَومانَةِ الدُرّاجِ فَالمُتَثَلَّم

فكناها وكان آنذاك كبيراً في السن.

وقوله:

فَلا تَعِدي مَواعِدَ كاذِباتٍ تَمُرُّ بِها رِياحُ الصَيفِ دوني

واقرأ معي أول هذه القصيدة سترى أنَّ صاحبنا قد كان رقيق النفس ولكنه مع ذلك حازم مع صاحبته التي لا يَحسُن معها الحزم. أن يكون الشاعر صاحب طبع لا يخلو من غلظة وجفاء

(حسين، ١٩٢٧، ١/ ١٦٦). أما ذكره رياح الصيف إنما عنى بها الدبور وهي تهبُّ على البحرين من جهة الغرب والجنوب الغربي في الصيف، وهي رياح حارَّة تأتي بالعجاج والغبار ولا تأتي بالخير. وقال صلى الله عليه وسلَّم: (نُصرتُ بالصَّبا وأُهلكت عادٌ بالدبور) (ابن حنبل، ١٩٩٥، ٢/ ٤٨٥)- وهي الريح العقيم- قال تعالى﴿ وفي عادٍ إذ أرسلنا إليهم الريح العقيم﴾ (الذاريات الآية ٤١). وهاهنا ربطٌ بين ذكره الرحلة والهبوب إذ إنَّ الارتحال يكون في زمن الصيف والجفاف طلباً للماء، وأنشد الأصمعي لشاعر (المرزوقي، ١٤١٧هـ، ص ٣٥٩):

إذا الجوزاءُ أردفتِ الثريّا ظننتَ بآلِ فاطمةَ الظُّنونا

وهذا يحتمل وجهين: يجوز أن يكون جمعهما المربع، وكان ساكن النفس لاستمتاعه بها وامتداد الوصال معها، حتى إذا رأى الجوزاء طالعة علم أنها تظعن وينقطع ما بينهما، فترجع إلى بعض محاضرها، لأنَّ ذلك وقت الانصراف عن البدو، فلذلك ظن الظنون السيئة لا سيما وقد كان أبهم عليه منصرفها (المرجع السابق، ص ٣٥٩).

فالشاعر هنا يظنُّ هذه الظنون السيئة لأنه ربما أبهم عليه الوجهة التي يسلكها أهل فاطمة أو المكان الذي ينزلون فيه كما قال زهير (ديوانه، ١٩٦٤م، ص ١٦٤):

بانَ الخَليطُ وَلَم يَأوُوا لِمَن تَرَكوا وَزَوَّدوكَ اِشتِياقاً أَيَّةً سَلَكوا

وظاهرُ كلامِه أنَّه لم يعرف وجهتهم. وكانت العرب تخرج في أوقات بعينها إلى البادية بحثا عن المرعى وأماكن المطر وعندما يهجم الصيف ويبس النبات ويجَفُّ وتنضب الغدران من الكَرَع يعودون إلى المحاضر التي كانوا عليها، وهكذا كانوا في تنقل دائم بحثا عن كلأٍ لحيواناتهم التي هي قوام حياتهم ولها مكانة سامية في نفوسهم لما تعود به عليهم من ضروب النفع، يقول ذو الرمة واصفاً حال ظعن انتجعن واديا ممرعا فصادفن فيه فاضل العشب ثم ارتحلن عنه عندما يبس نباته (ديوانه، ١٩٩٨م، ص ١٤٤):

أَلقى عِصِيَّ النَوى عَنهُنَّ ذو زَهَرٍ وَحفٌ على أَلسُنِ الرُوادِ مَحمودُ
حَتّى إِذا وَجَفَت بُهمى لوى لَبَنٍ وَابيَضَّ بَعدَ سَوادِ الخُضرَةِ العودُ
وَغادَرَ الفَرخُ في المَثوى تَريكَتَهُ وَحانَ مِن حاضِرِ الدَحلينَ تَصعيدُ

ظَلَّت تُخَفِّقُ أَحشائي عَلى كَبدي كَأَنَّني مِن حِذارِ البَينِ مَورودُ

فالحمَّى التي أصابت ذا الرمة إنما جاءته عندما لاحظ هيج النبات وذهاب ريح الصيف بيبيسه فعلم أن محبوبته سترجع إلى محاضرها، ففزع وارتعد خشية البين والفراق. وذكر أن أحشاءه خفقت والذي يخفق ويضطرب هو القلب لا الكبد إلا العرب كانت تظنُّ أنَّ مصدر الحياة ومكمن العاطفة والشوق في الكبد لا القلب. أي أنهم كانوا لا يميزون بين أعضاء الجسم (التجاني الماحي، ١٩٥٩م، ص ٩٥). وقال أبو حنيفة الدِّينوري: وربما اعتاد الحيان مبدأً بعينه فلا يزال الربيع يجمعهما فيه ثم يصرفهما الصيف (المرزوقي، ١٤١٧هـ، ٣٥٩). ولعل هذا الحديث الذي رواه المرزوقي عن الدينوري أخذه عن كتاب أبي حنيفة الأنواء وهو مفقود، وقد أكثر ابن سيده الأخذ عنه في كتابه المخصَّص.

قوله:

فَإِنّي لَو تُخالِفُني شِمالي خِلافَكِ ما وَصَلتُ بِها يَميني
إِذاً لَقَطَعتُها وَلَقُلتُ بِيني كَذَلِكَ أَجتَوي مَن يَجتَويني

وقطع الشِّمال فيه مشقَّة إذ إنه إنما يقطعها بأختها اليمين، وهذا التشبيه شائع في شعر كثير من الشعراء كقول ذي الإصبع العدواني (المفضليات، د. ت، ١٦٤):

وَاللَهِ لَو كَرِهَت كَفّي مُصاحَبَتي لَقُلتُ إِذ كَرِهَت قُربي لَها بيني

وهو كثير في شعر العرب ويضيق المجال عن الإفاضة فيه، ووعيده للمحبوبة بالهجر فيه كذبٌ، ولو كان قادراً لما استخدم المبالغة في التشبيه، كما قال أبو الطيب الطيب في حلف الشمقمق على أن يلقى سيف الدولة كفاحاً (ديوانه، د.ت، ص ٦٠٠):

عُقبى اليَمينِ عَلى عُقبى الوَغى نَدَمُ ماذا يَزيدُكَ في إِقدامِكَ القَسَمُ
وَفي اليَمينِ عَلى ما أَنتَ واعِدُهُ ما دَلَّ أَنَّكَ في الميعادِ مُتَّهَمُ

واجتوى المكان أي كرِه المُقامَ فيه وإن كان في نعمة (ابن منظور، ١٤١٤هـ، ١٤/ ١٥٨). وقوله متِّعيني والمتعة: التمتُّع بالمرأة لا تريد إدامتَها لنفسك (ابن سيده، ٢٠٠٠، ٢/ ٦٤). فهو لا ينكر أنَّه كان في نعمة معها إلا أنَّه لا يرضى لنفسه بالهُون.

قوله:

كغزلانٍ خذلنَ بذات ضالٍ تنوشُ الدانياتِ من الغصونِ

فيه إشارة إلى جمال أجيادهنَّ وشبَّههنَّ بالغزلان وهن يمددن أعناقن لينلن من أغصان شجر الضال وأجمل ما يكون عنقُ الغزال وهو يمدُّ عنقه، قال العرجي (ديوانه، ١٩٩٨م، ص ٢٤١):

باللهِ يا ظبياتِ القاعِ قلنَ لنا ليلايَ منكنَّ أم ليلى من البشرِ
يا ما أُمَيْلِحَ غزلاناً شَدَنَّ لنا من هؤليَّائِكُنَّ الضَّـــالِ والسَّمُرِ

والضالُ أيضاً شجر تصنع منه السهام وبها تصاد الظباء، وقد يكون فيه إشارة إلى ما تفعله العيون بالمحبِّين وشبَّه المرقِّش الأصغر عيون المحبوبة بالقوس المصنوعة من شجر الضال، قال (ديوان المرقشين، ص ٩٧):

رَمتْكِ ابْنَةُ البَكْرِيِّ عَنْ فَرْعِ ضالَةٍ وهُنَّ بِنا خُوصٌ يُخَلْنَ نَعائِما

فكأنَّ المرقِّش يشير إلى حسن الأجياد ويشير إلى جمال العيون من طرفٍ خفي، وهؤلاء النسوة يعشن في خفض من العيش على بداوتهنَّ وإلا ما جعل الغصون دانيات، قال تعالى في وصف نعيم أهل الجنة:﴿ فهو في عيشة راضية، في جنة عالية، قطوفها دانية﴾ (الحاقة ٢١، ٢٢، ٢٣). فهنَّ في غضارة من العيش ونعمة. وللضال رائحة عطرة؛ والضال شجرة من الدِّقّ تكون بأَطراف اليمن ترتفع قدر الذِّراع تَنْبُت نَبات السَّرْوِ، ولَها بَرَمَةٌ صفراء ذَكِيَّة جِدّاً تأْتيك رِيحُها من قَبْل أَن تَصِل إِليها، قال: وليست بِضالِ السِّدْر (الدِّيْنَوَرِيّ، د. ت، ٩٣، ٩٤). فكأنَّه يشير أيضاً من طرف خفيٍّ إلى طيبهنَّ.

قوله: لِمَن ظُعُنٌ تَطَالعَ مِن ضُبَيبٍ فَما خَرَجَت مِنَ الوادي لِحينِ

الاستفهام هنا استفهام تقريري لمجرَّد التأثير الخطابي (rhetorical question)، فهو يعرف أنَّها ظعن فاطمة.

ويظهر أنَّه قد رقَّ بعض الشيء بعد هذه المقدِّمة العنيفة، حين نظر إلى هذه الإبل وهي ترتحل وقد حملت من كان يحب (حسين، ١٩٢٧، ص ١٦٧). ومشهد الوداع مؤثر، فما من ركب سار وارتحل إلا وفي الحي محبٌّ له في الركب محبوب كما قال عرقلة الدمشقيُّ نمير بن حسَّان (ابن شاكر، ١٨٧٣م، ١/ ٣١٤):

ما في الخيام وَقَد سارَت ركائبهم إِلّا مُحِبٌّ لَهُ في الرَّكب مَحبوبُ
فمنهمُ يَوسُفٌ في كُـلِّ راحِلَةٍ وَالحَيُّ في كُلِّ بَيتٍ مِنهُ يَعقوبُ

ومن أحسن ما قيل في مشاهد الوداع قول الشيخ عبد الرحيم البرعي رضي الله تعالى عنه (ديوانه، د. ت. ص ٥١):

وَدعتها وَالدَمـعُ يقـطر بَيننا وكذاك كلّ مـودع مشتـاق
شُغلت بِتَنشيف الدموع يَمينها وَشمالـها مَشغولـة بعنــاقي

والدمع سلاح المرأة لمنع الرجل من السفر، وقلَّ أنْ يُجدي.

قوله:

ظهرنَ بكلّةٍ وسدلن أخرى وثقَّبن الوصاوص للعيون

والكلَّة سترٌ رقيق، أو صوفة حمراء تُجعل في رأس الهودج (الزبيدي، د.ت، ٣٠/ ٣٤٧). أي أنهنَّ جلسن في الهودج من وراء هذا الستر الرقيق، وعلَّقن هذه الصوفة الحمراء للزينة ولونُ الهودج دائماً أحمر حتى زعم علقمة بن عبدة أن الطير تظنُّه لحماً فتخطفُه، قال (ديوانه، ١٩٩٣م، ص ٣٤):

عَقلاً وَرَقماً تَظَلُّ الطَيرُ تخطفُه كَأَنَّهُ مِن دَمِ الأَجوافِ مَدمومُ

قال أبو تمَّام وهو عباسي (ديوانه، ١٩٩٤م، ١/ ٢٦٩):

وَفِي الكِلَّةِ الوَرِدِيَّةِ اللَونِ جُؤذُرٌ مِنَ الإِنسِ يَمشِي في رِقاقِ المَجاسِدِ

وقال ابن زيدون وهو أندلسي (ديوانه،١٩٩٤م، ص ٧٧): وَفِي الكِلَّةِ الحَمراءَ وَسطَ قِبابِهِم فَتاةٌ كَمِثلِ البَدرِ قابَلَهُ السَعدُ وقد حافظ الهودج على هذا اللون عبر العصور ففي كثير من بوادي السودان مثلاً ما زال الهودج أحمرَ اللون، والحُمرة عند العرب مرتبطة بالحسن، قال بشَّار بن برد (ديوانه، ١٩٦٦م، ٤/ ٦١) :

وَإذا دَخَلنا فَادخُلي في الحُمرِ إنَّ الحُسنَ أَحمَر

وقد يُزيَّن بالجوهر إذا كانت صاحبته أميرة أو من ذوات الغنى، قال ابن قيس الرقيَّات (ديوانه، ١٠٧-١٠٨):

إنَّ في الهَودَجِ المُحَفَّفِ بِالديـ ـباجِ ريماً مَعَ الجَواري رَبيبا
صَنَّعَتهُ أَيدي الجَواري وَعَلَّقـ ـنَ عَلَيـهِ زَبَرجَداً مَثقوبا

وفي ذكر محاسن النساء، وقيل: أحسن النساء الرقيقة البشرة، النقية اللون، يضرب لونها بالغداة إلى الحمرة، وبالعشي إلى الصفرة (الجاحظ، ١٤٢٣هـ، ص ١٩٣م). وقالت العرب):الحسن أحمر): وهو أن المرأة إذا خضبت يديها، وصبغت ثوبها قيل لها هذا. يريدون أن الحسن في الحمرة (الميداني، د.ت، ١/ ١٩٩). والوصاوص: براقع صغار ويُستفاد من وصفه لهنَّ أنَّهنَّ حديثاتُ السن. ووَصْوَصَت المَرأَةُ: ضَيَّقَتْ نِقَابَهَا فَلَمْ يُرَ منه إلاَّ عَيْنَاهَا. وقال الفَرَّاءُ: إذا أَدْنَت المَرْأَةُ نِقَابَهَا إلى عَيْنَيْهَا فتِلْكَ الوَصْوَصَةُ، "كوَصَّصَتْ" تَوْصِيصاً (ابن منظور، ١٤١٤هـ، ٧/ ١٠٥). والوَصَاوِصُ: بَرَاقِعُ صِغَارٌ تَلبَسُها الجارِيَةُ (الزبيدي ١٨/ ٢٠٣). وفيه إشارة إلى جمال العيون، يقول ابن الرومي (ديوانه ٤/ ١٣٦٦):

يصنَّ وجوهاً كالبدورِ وضاءةً لهن ضياءٌ من وراء الوصاوص

فهنَّ يضئن الهوادج إذا جلسن فيها، ويبصره الرائي من وراء الستور. يقول:

وَهُنَّ عَلى الظِلام مُطَلَّبَاتٌ طَويلاتُ الذَوائِبِ وَالقُرونِ

يزيد التمنُّع والتدلُّل الرجل رغبةً في المرأة، وهذا مما جرت به الفطرة، وكانت العرب تحبُّ تردُّدَ ماء الحياة في وجه الحُرَّة كما تكره وتذمُّ تبذلّها ويزيدهم نفوراً، يقول أبو الرقعمق من شعراء القرن الرابع (الثعالبي، ١٩٨٣م، ١/ ٣٨٣):

ويُعجبني التمنُّع والتَّشاجي من الخَود الممنَّعةِ الشجيه

قوله:

أَرَينَ مَحاسِناً وَكَنَنَّ أُخرى مِنَ الأَجيادِ وَالبَشَرِ المَصونِ

قوله: (أرَينَ)، يختلف ما تُبديه المرأة من زينتها من موقف لآخر، فصاحبة المرقِّش الأصغر أبدت شعرها ووجهها، قال (ديوان المرقشين ٩٧- ٩٨):

تَراءَتْ لَـــنا يــومَ الرَّحيلِ بِوارِدٍ وعَذْبِ الثَّنايا لم يَكُنْ مُتَراكِـما
سَقاهُ حَبِيُّ المُـــزْنِ في مُتَهَلِّلٍ مِنَ الشَّمسِ رَوَّاهُ رَباباً سَواجِما
أَرَتْكَ بِذاتِ الضَّالِ منها مَعاصِماً وخَدّاً أَسِيلاً كالـــوَذِيلَةِ ناعِما

وهذه امرأةٌ متبرِّجة، فكان يصفُ امرأةً من نساء الملوك، ونساء الملوك يُبدين ما شئن من زينتهنَّ لأنهن مستعصمات في حمى المُلك، لا يدنو منهنَّ ولا يجتريء عليهنَّ أحد. وإذا استعرضنا مشاهد التبصّر التي يبدأها الشاعر بقولِه: (تبصَّر خليلي)، نرى اختلافاً كثيراً في ذكر ما أبدته المرأة من محاسنِها. وهذا البشَر المصون الذي ذكره يدلُّ على أنها امرأة من الحرائر لا تُمتهن بالخدمة، والهودج فيه صيانة للمرأة ووقايةٌ لها من لفحة الرمضاء وحرِّ الهجير وفيه إكرامٌ لها، وليس كما ادَّعى بعض المستشرقين من أن العرب يتَّبعون نظام الحريم وعزل الرجال عن النساء حتى في الأسفار، وإنَّما قاسوه على مجتمعاتهم ومجتمع الغرب الذي يعيشون فيه مباينٌ لمجتمع العرب الذي يصفونه في الزمان و المكان وفي ما جرت به عوائدهم.

قوله:

وَمِن ذَهَبٍ يَلوحُ عَلى تَريبٍ كَلَونِ العاجِ لَيسَ بِذي غُضونِ
إِذا ما فُتنَهُ يَومـــاً بِرَهنٍ يَعِزُّ عَلَيهِ لَـم يَرجِـــع بِحينِ

هذه امرأة تتحلَّى بقلائد الذهب وهذا الذهب يلتمع على ترائب ملساء أما قوله: (كلون العاج)، فلم يقصد باللون صفة الأجسام من الخضرة والحمرة والصفرة إنما عنى بها النوع وفي اللسان اللون: النوع، ويتَّصف العاج المصقول بالملاسة لذا قال (ليس بذي غضون) وقال امرؤ القيس (ديوانه ص ١٥):

ترائبها مصقولةٌ كالسجنجل

أي المرآة، ويوصف العاج أيضاً بالبياض فلا يُستبعد حينئذٍ أنه أراد اللون فهؤلاء النسوة بيض الترائب ومن العاج تُصنع الدُّمى. والدُّمية عند العرب: الصورة من العاج ونحوه (البغدادي، ١٩٩٧م، ٢/ ٢٧٨). والعاج يميل في بياضه إلى الصفرة، وقد اعتادت النسوة على صبغ الترائب بالزعفران كما قال المخُبَّل السَّعْدِيّ (ابن سيده، ٢٠٠٠، ٦/ ١٦٥):

وَالزَعفَرانُ عَلى تَرائِبِها شَرِقٌ بِهِ اللَبَاتُ وَالنَحرُ

قد تصبغ المرأة جميع جسدها بالزعفران صيانةً له من تغيُّر الرائحة إذ إنَّ البدويَّات لا يتيسَّر لهن الاغتسال بالماء لقلَّة الماء ونقصانه، وهنَّ مرتحلات، وفي السودان وبعض بلاد شمال إفريقيا تصبغ البدويَّات أجسامهنَّ بالنِّيلة ويستغرق هذا أياماً ويغني عن الاغتسال لمدة. لذا وصفت المرأة في بياضها وصفاء بشرتها بالدمية، وهو كثير في الشعر العربي.

ثم ذكر بأنَّهنَّ إذا رهنَّ هذا الذهب حنَّ إلي ترائبهن وفيه تشخيص، وليس فيه وصفٌ لهنَّ بالفقر والحاجة، إذ رُبّما رهنَّ هذا الذهب في فداء أسير أو حمالة قتيل أو إصلاح ذات البين وهذا مما يَشرُف به المرء. ورجع إلى ذكر الحين مرةً ثانية والحين هاهنا غير محدَّد بزمن فقد يكون أشهراً كسجن يوسف على نبيّنا وعليه الصلاة والسلام: ﴿ ثمَّ بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجُنُّنه حتى حين﴾ (يوسف، الآية ٣٥). وقد يكون عاماً: ﴿ تؤتي أُكلها كلَّ حينٍ بإذن ربِّها﴾ (إبراهيم، الآية ٢٥). وقد يزيد عن هذا وقد ينقص. وقد يكون ذكره لرهنهنَّ الذهب على التخييل وليس على الحقيقة.

قوله:

بِتَلهِيَةٍ أَريشُ بِها سِهامي تَبُذُّ المُرشِقاتِ مِنَ القَطينِ

التلهية الحديث أو الغناء الذي يتلهى به، وقد درجت العرب وكثيرٌ من الأمم على التغنّي بالشعر للاستعانة به على العمل الشاق، وصنع السهم فيه عناءٌ و مشقَّة، فمنه: (الفُوقُ)، وهو الموضع الذي يكون فيه الوَتَرُ، وحرفا الفُوقِ (الشّرْخان)، العَقَبَة التي تجمع الفُوقَ هي (الأُطْرَة)، و (الرُّعْظ)، مَدْخَل النصل في السهم، و (الرِّصاف)، العقَبُ الذي يُشَدُّ فوق الرُّعْظِ، وريش السهم يقال له القُذَذ واحدتها قُذَّة (ابن قتيبة، د.ت، ص ١٨٦). وذكر أن النواتية كانوا يترنَّمون عند الجذب والدفع، والحط والرفع بهينمة تبعثهم على النشاط. والجمام، وتؤديهم في عملهم بالتمام (النويري، ١٤٢٣هـ، ١/ ٢٥٩). وفي قصة الكُسعيّ أنه كان يبري قوسه وهو يترنَّم مرتجزاً، ويقول (ابن ظافر الأزدي، ١٨٦١م، ص ١٢):

أدعوكَ فاسمعْ يا إلهي جرْسي ياربِّ سدِّدني لنحتِ قوسي
وانفعْ بقوسي ولـدي وعِرسي فإنَّها من لـــذَّتي لنفسي
أنحتُ صفراءَ كلــونِ الورْسِ صلداءَ ليست كقسيِّ النَّكس

والصلادة: الصلابة. والمُرْشِقُ والرَّشِيقُ من الغِلمان والجَواري: الخَفِيفُ الحسنُ القَدّ اللَّطِيفةُ، وقد رَشُق، بالضم، رَشاقة. التهذيب: يقال للغلام والجارية إذا كانا في اعْتِدال، أو يكون قد شبَّهها بالظبية فالمُرْشِق من الظباء: التي تَمُدُّ عنقَها وتنظر فهي أَحسن ما تكون (ابن منظور، ١٤١٤هـ، ١٠/ ١١٧). فالمرأة قد تُخرج رأسَها من الخباء أو الهودج كأنها تستطلع شيئاً ليبدو جمالُ عنقها.

والقَطِينُ: المقيمون في الموضع لا يكادون يَبْرَحُونه، والقَطِينُ: السُّكَّان في الدار (ابن منظور، ١٤١٤، ١٣/ ٣٤٣). ولسن هاهنا قطين إنَّما هنَّ ظعائن ولكن لما كنَّ من نسائه فإنه يراهن في الإقامة والظعن، أو قد يكون ذكره للقطين مجازاً.

قوله:

عَلَونَ رَباوَةً وَهَبَطنَ غَيباً فَلَم يَرجِعنَ قائِلَةً لِحينِ

وصفُ الطريق بأنَّه أنجادٌ وأغوار كناية عن المشقَّة والعنت الذي يلقاه المسافر ولو كان سهلا منبسطاً لهان على الرَّكب، وهذه صفة بلاد البحرين التي أرادها الشاعر.

وصارت بلاد اليمامة والبحرين وما والاهما: العروض، وفيها نجد وغور، لقربها من البحر وانخفاض مواضع منها ومسايل أودية فيها والعروض يجمع ذلك كله (البغدادي، ١٩٩٧م، ٢/ ٣٨٥). وهذه صفة غالب البلدان التي تجاور البحر فهي أنجادٌ وأغوار. قولُه:

فَقُلتُ لِبَعضِهِنَّ وَشُدَّ رَحـلي لِـهاجِـرَةٍ نصَبتُ لَها جَبيني
لَعَلَّكِ إِن صَرَمتِ الحَبلَ مِنّي كَذاكَ أكون مُصحِبَتي قَروني

في البيت صورة مغايرة لصورة المرأة المُمنَّعة في الهودج التي صانها الكنُّ من الهجير فوق بشرتها، وهنا صورة رجل لوَّحت الشمس بشَرتَه فهو يفتخر بالسير في أُوار الشمس أي حرّها وقوله: (لبعضهنَّ) عنى فاطمة فالعرب تستخدم لفظة البعض في الإفراد والجمع، فمثال الإفراد قول لبيد (ديوانه، ٢٠٠٤م، ص ١١٣):

تَرّاكُ أَمكِنَةٍ إِذا لَم أَرضَها أَو يَعتَلِق بَعضَ النُفوسِ حِمامُها

أراد ببعض النفوس نفسه، وقد يُراد به جماعةٌ من الناس كما في قول أبي الطيب (ديوانه، ص ١٧٢):

وَلا واحِداً في ذا الوَرى مِن جَماعَةٍ وَلا البَعضُ مِن كُلٍّ وَلَكِنَّكَ الضِعفُ

وفي البيت الثاني رجع إلى ما ذكره في أبيات المطلع من إبائه، وعدم رضاه بالتذلل للمحبوب على عادة الشعراء في التذلل للمحبوب على صدوده. ومن العشَّاق من يزيده في المرأة غراماً إذا كانت ذات تمنُّع ومعاسرة فلا يألو جهداً في السعي إلى استرضائها. وهذا الإباء يشي بما في نفس الشاعر من الغضب على الممدوح إذ غالباً ما يشي المَطلع بالغرض من القصيدة فموقفه من فاطمة شبيه بموقفه من عمرو بن هند (فإمَّا أن تكون أخي بحقٍّ).

وصف الرحلة والهودج:

قوله: ل

من ظُعنٌ تُطالعُ من ضبيب فما خرجتْ من الوادي لحينِ

الظّعينة المرأة؛ وأصل الظّعينة الرّاحلة التي ترحل ويُظعن عليها، أي: يُسار بها، وقيل للمرأة ظعينة لأنّها تظّعن مع الزوج حيثما ظعن؛ أو لأنّها تُحمل على الراحلة إذا ظعنت؛ وقيل الظعينة المرأة في الهودج، ثمّ قيل للهودج بلا امرأة ظعينة؛ وجمعها ظعن وظعائن وأظعان (ابن الأثير، ١٩٧٩م، ٣/ ١٥٧).

ومبتدأ هذه الرحلة من وادي ضُبيب في بلاد عبد القيس فإذا كان كذلك كان مكثها في الوادي للحين الذي ذكره استعداداً للرحيل فإنَّه قد يستغرق الليل أو النهار بأكمله فقد ذكر الحارث بن حلِّزة أن التجهُّز للرحيل استغرق الليل بأكمله فقال (ديوانه، ١٩٩٤م، ص ٦٨):

أجمعوا أمرهم عشاءً فلمَّا أصبحوا أصبحتْ لهم ضوضاءُ

أما صاحبة زهير فقد تأخَّر رحيل قومها إلى الظهيرة لاختلافهم في وجهة المسير، قال (ديوانه، ١٩٦٤، ١٦٤، ١٦٥):

رَدَّ القِيانُ جِمالَ الحَيِّ فَاحتَمَلوا إِلى الظَهيرَةِ أَمـرٌ بَينَهُم لَبِكُ
ما إِن يَكادُ يُخَلّيـهِم لِوِجهَتِهِم تَخالُجُ الأَمرِ إِنَّ الأَمرَ مُشتَرَكُ

فالمساء حينٌ والصباح حين كما في قوله تعالى: ﴿فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون﴾ (الروم، الآية ١٧). وإن كان هذا المُكث تعريساً بعد الرحيل فليس ببعيد وهم أهل الأحساء أن يكونوا دخلوا وادي المشقَّر وفيه سوق هجر أو المشقَّر الذي يقام في ربيع الآخر، وحينئذ يكون هذا الحين أياماً ولياليَ يبيعون ويشترون والسوق في بلاد الشاعر بني عبد القيس.

قولُه:

مررْنَ على شرافِ فذاتِ رَجلٍ ونكَّبنَ الذرانح باليمينِ

وشراف وذات رَجل من بلاد البحرين أما الذَّرانح فقد يكون جبل القارة ويبدو من قوله نكَّبن أنَّ الركب كان في موضع مخافة، والغريب في وصف الرحلة أنَّ الظعينة أو الشاعر في الرحلة غالبا ما يَترك الجبل أو موضع المخافة عن يمينه ولعلَّه ضربٌ من الفأل، قال زهير بن أبي سلمى (ديوانه، ١٩٦٤، ص ١١):

جَعَلنَ القَنانَ عَن يَمينٍ وَحَزنَهُ وَكم بِالقَنانِ مِن مُحِلٍّ وَمُحرِمِ

والقنان جبلٌ بأعلى نجد (البكري، ١٤٠٣هـ، ٤/ ١١٥٠). وقال أبو الطيب (ديوانه، ص ٤٨٥):

لَئِن تَرَكنَ ضُمَيراً عَن مَيامِنِنا لَيَحدُثَنَّ لِمَن وَدَّعتُهُم نَدَمُ

وضمير موضع بالشام (المرجع السابق، ٣/ ٨٨٢). وقال ذو الرُّمة (ديوانه، ١٩٩٨، ص ٣٢٥):

وَقَد جَعَلوا السَبِيَّةَ عَن يَمينٍ مَقادَ المُهرِ وَاعتسَفوا الرِمالا

والسبيَّة اسم أُطلق على كثيب من الرمل بالدهناء (ابن منظور، ١٤١٤هـ، ١٤، ٣٧٠). وترك الجبل أو المكان عن يمين كثيرٌ في الشعر العربي.

قوله:

وهنَّ كذاك حين قطعن فلجاً كأنَّ حُمولَهنَّ على سفين

وفلج اسم موضع وهو وادٍ خصيب، وقال أعرابي: رأيت ببطن فلجٍ منظراً من الكلأ لا أنساه، وجدت الصفراء والخزامى يضربان نحر الإبل، وتحتها قفعاء، وحربث قد أطاع وأمسك بأفواه الإبل أغناها عن كلّ شيء (المرزوقي، ١٤١٧هـ، ٣٦٥). والعرب كانت في رحلتها تتبع أماكن الخصب والكلأ والمياه رفقاً بالرَّكب، وفي حديث الإمام علي كرَّم الله وجهه في وصيته لمن يسوق إبل الصدقة: (وليوردَها ما تَمُرُّ به من الغدر، ولا يعدل بها عن نبت الأرض إلى جواد الطرق، وليروِّحها في الساعات، وليُمهلْها عند النِّطاف والأعشاب، حتى يأتينا بها بإذن الله بدناً مُنقيات غير متعبات ولا مجهودات) (بهاء الدين البغدادي، ١٤١٧،١/ ٣٥٢). كان هذا شأن العرب في الترحال. وكلُّ الأماكن التي ذكرها في بلاد البحرين، وقد يعمد الشاعر إلى التعمية في تتبُّع الرحلة خوفاً من أهل المحبوبة فيذكر أماكن في بلاد أخرى وكان هذا سبب مقتل سُحيم عبد بني الحسحاس إذ ذكر ما فعله بالمرأة ثم تتبَّع رحلتَها فوصف المواضع التي مرَّت بها وهي من موطن سادته بني الحسحاس، قال في يائيَّته (ديوانه، ١٩٥٠، ص ٢٤):

تَبَصَّر خَليلي هَل تَرَى مِن ظَعائنٍ تَحَمَّلنَ مِن جَنبَى شَرَورَى غَوادِيا

أَخَــذنَ عَلى المِقراةِ أو عَن يَمينِها إذا قُلتُ قَد وَرَّعنَ أَنزَلنَ حــادِيا

وشروى والمقراة في بلاد بني الحسحاس فشكُّوا في فِسقه بابنتهم وهم سادته فقتلوه.

وقال ابن الرومي يذكر مقتل سحيم (ديوانه، ٣/ ١١٨٨):

فقد اصطلى نارَيْ هوىً وعقوبةٍ قبلي سُحيمٌ في ابنة الحَسْحاس

وتزداد عناية الشاعر بالمكان لوجود المحبوبة فيه إذ لا قيمة للمكان في ذاته وإذا كان الشاعر قليل التعلُّق بالنساء، أو كانت له امرأة سيئة الخلق أعرض عن ذكر المكان في شعره، والصحابيُّ كعب بن زهير رضي الله تعالى عنه كان كثير العتب على امرأته كثير الشكوى منها لذا ندر ذكر الأمكنة في شعرِه، وهو موضوع جدير بأن تُفرد له دراسة.

وتشبيه الظعائن بالسفن شائعٌ عند شعراء البحرين مثل طرفة لمجاورتهم الخليج العربي وعند الشعراء الرحَّالة الذين قصدوا الملوك كالنابغة وهو من أهل الحجاز والأعشى وهو من أهل اليمامة، وبلاد العرب جزيرة فلا عجب إن ذكر شعراؤها البحر وإن كان أكثر من ذكر هذا ممن جاور البحر منهم.

قوله:

وهنَّ على الرجائز واكناتٌ قواتل كلّ أشجع مستكين

الرِّجازَةُ بالكسْر: مَركب للنِّساءِ، وهو أَصغر من الهودَجِ، جَمعه رَجائزُ. أَو كِساءٌ فيه حَجَرٌ يُعلَّق بأَحد جانبَي الهَودَج لِيَعْدِلَه إذا مالَ، سُمِّيَ بذلكَ لاضطرابه، وفي التهذيب: هو شيءٌ من وِسادةٍ وأَدَمٍ، إذا مال أَحَد الشِّقَّين وُضِع في الشِّقِّ الآخر ليَسْتَوِيَ، سُمِّيَ رِجازَةَ المَيْلِ. أَو شَعْرٌ أَحْمَرُ أو صوفٌ يعلَّق على الهَودجِ للتَّزَيُّن (الزبيدي، ١٥/ ١٥١). وقاعدة الهودج مستوية وغالباً ما تصحب صاحبة الهودج إذا كانت من نساء الأشراف جارية تقوم بعدل ميل الهودج، ونجد هذا أيضا في أهل الهند إذ من عادتهم وضع الهوادج على ظهور الفيلة ويكون فيها ساداتهم وأشرافهم ويكون معه في الهودج خادمٌ يقوم بحاجته. أما الأشجع المستكين فهو الشاعر نفسه إذ لم تَعصمه قوَّته

وشجاعته من الوقوع في الحب وفيه نظر إلى قول المرقِّش الأكبر، وهو سابقٌ للمثقِّب العبدي في زمانه (الأنطاكي، ١٣١٩هـ، ص ٧٦، ٧٧):

لقد كنت ذا بـأسٍ شديد وهمَّة إذا شئتُ لمساً للثريَّا لمستُها
أتتنى سهامٌ من لحاظٍ فأرشقتْ بقلبي ولو أستطيعُ ردّاً رددتُها

خطاب الممدوح:

اجترأ المثقِّب في خطابه لعمرو بن هند وخالف الناس في عادتهم في مخاطبة الملوك. وكانت العرب عامّةً تأنف من الخضوع للملوك فقد كان ولاؤها لقبائلها أقوى من ولائها للملوك، قال الأُحيمر السعدي (معجم البلدان، ١٩٩٥، ٢/ ١٨٧):

كَفى حَزَناً أنَّ الحِمارَ بنَ بَحـدَلٍ عَلَيَّ بِأَكنافِ السَـتّارِ أَميرُ
وَأَنَّ ابنَ موسى بائِعَ البَقلِ بِالنَوى لَهُ بَينَ بابٍ وَالسِتارِ خَطيرُ

والخطير: الرفيع المنزلة (الأزهري، ٢٠٠١م، ١٠/ ٢٦١). وكان أهل البيوتات منهم أشدُّ أنفةً في عدم الخضوع للملوك وهاهو عمرو بن كلثوم يقتل عمرو بن هند في سرادقه وينتهب أمواله غضباً لأُمِّه ليلى بنت المهلهل لما أرادت هندُ هوانَها ويقول:

بأَيِّ مَشِيئةٍ عَمْرَو بنَ هِنْدٍ تُطِيعُ بنا الوُشاةَ وتَزْدَرِينَا
تَهَدَّدْنَا وأَوْعِـــدْنا رُوَيْداً مَتَى كُنَّا لأُمِّكَ مُقْتَوِينَا

وذُكِرَ أن عثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزى بن قصي رأى حاجة قريش الى بلاد قيصر ومتجرهم إليها فخرج الى قيصر فذكر له مكة ورغبه بها وقال يكون زيادة في ملكك كما ملك كسرى صنعاء فكتب له كتاب الى قريش بالملك. وفي بعض الروايات وختم الكتاب بذهب وحمله على بغلة بسرج مذهب فأتى قريش فقال: يا قوم قد علمتم أمانكم ببلاد قيصر وما تصيبون بها من التجارة في كنفه، وقد ملكني عليكم وإن ابن عمكم وإنما أخذ من أحدكم الجراب من القرط والعكَّة من السمن والإهاب فاجمع ذلك له وبعثه به اليه وأنا أخف إن أبيتم ذلك أن يمنع منكم الشام فلا تتجروا فيه وينقطع مرفقكم منه. فخافوا قيصر وأخذ بقلوبهم ما ذكره من متجرهم فاجمعوا إن يعقدوا على رأسه التاج عشية وفارقوه على ذلك ثم إنَّ عبد العزى أبن قصي وقريش على أحفل

ما كانت عليه من الطواف: يا عبد الله أملك بتهامة الا إن قريشاً لقاح لا تملك. فانحاشوا انحياش حمر الوحش واتسقوا على قوله وقالوا: واللات والعزى لقد صدق ما كان ملك قط، فانتقضت قريش عن ذلك ولحق عثمان بقيصر، ولم يملك إلا ساعةً من نهار (أبو البقاء الحلي، ١٩٨٤م، ٦٤، ٦٥).

قولُه:

فَإِمّا أَن تَكونَ أَخي بِحَقٍّ فَأَعرِفَ مِنكَ غَثّي مِن سَميني

خاطبه بضمير المخاطب والملك يُخاطب عادةً بصيغة الغائب ولو كان حاضراً كما في خطاب يوسف على نبيّنا وعليه الصلاة والسلام للملك والملك يسمع:﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بالغَيْبِ﴾ (يوسف، الآية ٥٢). (ذَلِكَ لِيَعْلَمَ)، ولم يقل: لتعلم لحضور الملك؟ فجرت مخاطبة يوسف على نبينا وعليه الصلاة والسلام للملك على سبيل ما يخاطِب النَّاس به الملوك وهذا لما اتصف به من عظيم الأدب، فخبَّر عنه بغيْبه وهو حاضر، كما يقول الرَّجُل للوزير إذا خاطبه: إنْ رأى الوزير أَن يفعل كذا وكذا! فيكون أَحسنَ في المخاطبة من أَن يقولَ: إن رأَيت أَن تفعل كذا وكذا (ابن الأنباري، ١٩٨٧م، ص ٤١٨). ثمَّ زاد فخيَّره بين الوصل والقطيعة جرياً على خطابه لفاطمة.

وقد عابُوا الأحوص حين خاطب المُلوك خطاب العوامّ في قوله:

وأراك تَفعل ما تقُول وبعضُهم مَذِق الحديث يقول ما لا يَفْعلُ

وهذا معنى صحيح في المدح، ولكنهم أجلّوا قدر الملوك أن يُمدحوا بما تُمدح به العوام؛ لأن صِدْق الحديث وإنجاز الوعد وإن كان من المدح فهو واجب على العامّة، والمُلوكُ لا يُمدحون بالفرائض الواجبة، إنما يَحسن مدحُهم بالنّوافل (ابن عبد ربه، ١٤٠٤هـ، ٤/ ٢٦٥). وللمدح ألفاظ تخصُّه، وللذم ألفاظ تخصه، وقد تعمَّق قومٌ في ذلك حتى قالوا: من الأدب ألا يخاطب الملوك ومن يقاربهم بكاف الخطاب. وهذا غلط باردٌ، فإن الله الذي هو ملك الملوك، قد خوطب بالكاف في أول كتابه العزيز فقيل:﴿ إياك نعبد وإياك نستعين﴾. وقد ورد أمثال هذا في مواضع من القرآن غير محصورة (ابن الأثير، ١٤٢٠هـ، ٢/ ٣٠٩).

نقول: استشهاده بهذا ليس مما يرد قول من ذهب إلى أن الأدب في خطاب الملوك ومن قاربهم ألا يكون بالكاف، لأن هذه فاتحة الكتاب ومما يُتلى في كل ركعة، والقرآن الكريم إنما أنزل على النبي صلى الله عليه وسلم ومن جملة فوائده تنزيه الله عز وجل عن الشريك والولد والزوجة. فلو قيل: إياكم نعبد وإياكم نستعين، لكان فيه إشعار للمشركين والنصارى بما يقولونه من تعدد الآلهة، وكان شُبهةً لمدَّعي ذلك. نصرة الثائر الصفدي. وهذا الجدل لا طائل وراءه فمُلك الله سبحانه وتعالى لا يُقاسُ بملك البشر إلا من حيث تقريب الصورة. ومخاطبة المثقِّب العبدي لعمرو بن هند مخاطبة الأنداد راجعٌ إلى شرف عبد القيس.

وسار عبد القيس وشنَّ بن أفصى يطلبون المتَّسع والريف، وبعثوا بالروَّاد والعيون فبلغوا هجر وأرض البحرين، ومياهاً ظاهرة وقرى عامرة، ونخلاً وريفاً وداراً أفضل وأريف من البلاد التي هم بها ساروا إلى البحرين وضاموا من بها من إياد والأزد (مجمع الأمثال، ٢/ ٢٢).

وكانت عبد القيس في صراعٍ مع المناذرة الذين كانوا يدينون بالولاء لملوك فارس وفي عهد عمرو بن هند أعطى السلطة السياسية لعبد القيس، وجعل مراقبة الأسواق وإدارتها لعبد القيس وتميم. ويورد المعيني في بحثه عن المشقَّر أن السوق كانت لعبد القيس (محمد حسين، ٢٠١٠، ص ٤). وبالرغم من هذا كانت الحروب تثور بين المناذرة وعبد القيس وكان المناذرة حريصين على إرضائهم، وقال سويد بن منجوف العبدي من عبد القيس (ابن قتيبة، ١٤٢٣هـ، ١/ ٣٧٥):

أبي القلبُ أن يأتي السديرَ وأهلَه وإن قيلَ عيشٌ بالسدير غريرُ
به البقُّ والحُـــمَّى وأُسدُ خفيَّةٍ وعمرُو بن هندٍ يعتدي ويجورُ

ويقول الممزق العبدي شأس بن نهار، وهو خال المثقِّب، لعمرو بن المنذر بن عمرو بن النعمان وكان همَّ بغزو عبد القيس وكان أسيراً عنده (الثعالبي، ١٩٩٧م، ص ١٢٤):

أحقاً أبيتَ اللعن أن ابن فرتنـا على غير إجرام بِريقي مُشْرِقِ
فَإِن كنتُ مأكولاً فكُنْ خيرَ آكِلٍ وإلا فـأدركني وَلَـمَّا أُمَزَّقِ

فلما بلغت عمرو القصيدة انصرف عن عزمه. ومن البيّن أنَّ الممزّق أيضاً خاطب عمرو بن هند مخاطبة الأنداد وإن كان تأدَّب معه في قوله: (أبيتَ اللعن)، على عادة العرب في مخاطبة ملوكها.

ونفهم من هذا السياق جرأة المثقِّب على عمرو بن هند ومخاطبته له مخاطبة الأنداد. ولم يبيّن المثقب حاجته عند عمرو بن هند ولكن من الواضح أنَّه لم يأته مسترفداً ومستجدياً على عادة الشعراء.

وقوله :

إلى عَمرٍو وَمِن عَمرٍو أَتَتني أَخى النَجداتِ وَالحِلمِ الرَصين

وقد يذهب إلى وهل القاريء أنَّه عنَى الناقة بقولِه "أتتني" أي أنَّ الناقة التي يركبُها إنما هي من عطاء الملك وكانت عبد القيس لا تسترفد الملوك. وقد يذهب الظنّ إلى أنّ عنى مقالة ساءته فإن كلمة "أتتني" يصحبها غالباً ما لا يسرُّ كقول أعشى باهلة (ديوانه):

إنّي أَتَتني لِسانٌ مَا أُسَرُّ بها من عُلوَ لا عَجَب فِيهَا ولا سَخَرُ

أو تكون حاجته أنَّه أتى ساعياً في إطلاق سراح خاله الممزّق.

الخاتمة:

١. يرى الباحثان ضرورة دراسة الشعر العربي في ضوء المعلومات الجغرافية والتاريخية في عصر الشاعر إذ إنَّ لها أهمية كبيرة في تفسير كثير من المعاني في الشعر.
٢. كان المثقب العبدي من شعراء البحرين الذين كانوا يجاورون الخليج العربي لذا كان تشبيهه للظعينة بالسفن عن معاينة ومشاهدة.
٣. يفسِّر الشعر العربي بعضه بعضاً إذ وجد الباحثان أن الشاعر قد يلمّح تلميحاً خفيًّاً إلى معنى ولا يصرّح به، ويتمّ تفسيره بدراسة نصوص شعرية أخرى في نفس الغرض كإشارته إلى جمال الأجياد من غير أن يصرح بهذا في معرض وصفه للغزلان التي ترعى، ويُهتدي لهذا المعنى من دراسة الأشعار التي اشتملت على تشبيه جيد المرأة بجيد الظبي.
٤. غلبت الحُمرة على زي المحبوبة وهودجها وفي هذا دليل على وصفها بالحسن والحمرة عند العرب رمزٌ للحسن.

٥. خاطب المثقب العبدي عمرو بن هند مخاطبة الأنداد ولم يخاطبه بما يُخاطب به الملوك إذ إنَّ قبيلته عبد القيس كانت من القبائل التي كان لها خطرٌ عظيم في بلاد البحرين وكانت لهم معاهدات مع المناذرة وكانوا يستعينون بهم في الحروب.

٦. كان مطلع القصيدة يشي بالغرض منها إذ بيّن لمحبوبته أنه لا يرضى بالهوان إذا هجرته وفي هذا ما يشي بموقفه من الملك عمرو بن هند الذي كانت مخاطبته له شبيهة بمخاطبته للمحبوبة وهو الغرض الأساسي من نظم القصيدة.

٧. يجعل الشاعر القديم في رحلته الجبل عن يمينه وهذا متواتر في أشعار القدماء ولعله ضرب من الفأل.

المصادروالمراجع

القرآن الكريم

- ابن الأثير. أبو السعادات المبارك بن محمد. **النهاية في غريب الحديث والأثر**. تحقيق: طاهر أحمد الزاوي ومحمود الطناحي. المكتبة العلمية. بيروت ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.
- ابن الأثير: نصرالله بن محمد. **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**. تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد. المكتبة العصرية للطباعة والنشر. بيروت. لبنان. ١٤٢٠هـ.
- ابن الرومي. أبو الحسن علي بن العباس. **ديوان ابن الرومي**. تحقيق: حسين نصار وآخرين. دار الكتب والوثائق القومية. القاهرة. ط١. ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
- ابن حنبل. أبو عبد الله أحمد بن محمد. **مسند الإمام أحمد بن حنبل**. تحقيق: محمود محمد شاكر. دار الحديث. القاهرة. ط١. ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.
- ذو الرمة. غيلان بن عقبة. **ديوان ذي الرمة**. تحقيق: عمر فاروق الطبّاع. دار الأرقم للطباعة والنشر. بيروت. لبنان. ط١. ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.
- ابن زيدون. أبو الوليد أحمد بن عبدالله. **ديوان ابن زيدون**. تحقيق: يوسف فرحات. دار الكتاب العربي. بيروت. لبنان. ط٢. ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.
- ابن سيده. أبو الحسن علي بن إسماعيل. **المحكم**. تحقيق: عبد الحميد هنداوي. دار الكتب العلمية. بيروت. ط١. ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.
- ابن شاكر الكتبي. أحمد بن شاكر. **فوات الوفيات**. تحقيق: إحسان عباس. دار صادر. بيروت. لبنان. ط١. ١٩٧٣م.
- ابن ظافر الأزدي. علي بن ظافر. **بدائع البدائه**. طبعة مصر. ١٨٦١.
- ابن عبد ربه: أبو عمر شهاب الدين أحمد بن محمد الأندلسي. **العقد الفريد**. دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان. ط١. ١٤٠٤هـ.
- ابن قتيبة. أبو محمد عبدالله بن مسلم. **أدب الكاتب**. تحقيق: محمد الدالي. مؤسسة الرسالة. د. ت.
- ابن قتيبة. أبو محمد عبدالله بن مسلم. **الشعر والشعراء**، دار الحديث، القاهرة ١٤٢٣هـ.

- ابن قيس الرقيات. عبيدالله بن قيس. **ديوان عبيدالله بن قيس الرقيات**. تحقيق: محمد يوسف نجم. دار صادر. بيروت. لبنان. د. ت.
- ابن منظور. أبو الفضل محمد بن مكرم. **لسان العرب**. دار صادر. بيروت. ط٣. ١٤١٤هـ.
- ابن منقذ. أسامة بن مرشد بن علي. **لباب الآداب**. تحقيق: أحمد حسن لبج. دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان. ط١. ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.
- أبو البقاء الحلي: هبة الله محمد بن نما. **المناقب المزيدية في أخبار الملوك الأسدية**. تحقيق: محمد عبد القادر خريسات وصالح موسى درادكة. مكتبة الرسالة الحديثة. عمان. ط١. ١٩٨٤م.
- الأزهري. أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري. **تهذيب اللغة**. تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي. بيروت. لبنان. ط١. ٢٠٠١م.
- الأعلم الشنتمري. يوسف بن سليمان. **شرح ديوان علقمة**. تحقيق: حنا نصر الحتي. دار الكتاب العربي. بيروت. لبنان. ط١. ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.
- امرؤ القيس. **ديوان امرئ القيس**. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. دار المعارف. القاهرة. ط٥. د. ت.
- ابن الشجري. أبو السعادات علي بن محمد. **أمالي ابن الشجري**. تحقيق: محمود محمد الطناحي. مكتبة الخانجي. ط١. القاهرة ١٤١٣هـ/ ١٩٩١م.
- الأنطاكي. داود بن عمر الأنطاكي. **تزيين الأسواق في أخبار العشاق**. المطبعة الأزهرية المصرية. ط٢. ١٣١٩هـ.
- البرعي. عبد الرحيم بن أحمد بن علي البرعي اليماني. **ديوانه**. د. ت.
- بشار. بشار بن برد. **ديوان بشار**. تحقيق: محمد الطاهر ابن عاشور. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر. القاهرة ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م.
- البغدادي. عبد القادر بن عمر. **خزانة الأدب**. تحقيق: عبد السلام هارون. مكتبة الخانجي. القاهرة. ط٤. ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.
- البكري. عبدالله بن عبدالعزيز. **معجم ما استعجم**. عالم الكتب. بيروت. لبنان. ط٣. ١٤٠٣هـ.
- بهاء البغدادي. أبو المعالي محمد بن الحسن. **التذكرة الحمدونية**. دار صادر. بيروت. ط١. ١٤١٧هـ.

- الثعالبي. عبد الملك الثعالبي. **يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر**. تحقيق: محمد مفيد قميحة. دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان. ط١. ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
- ثعلب. أحمد بن يحي الشيباني. **شرح ديوان زهير بن أبي سلمى**. الدار القومية للطباعة والنشر. القاهرة. ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م.
- الجاحظ. أبو عثمان عمرو بن بحر. **المحاسن والأضداد**. دار ومكتبة الهلال. بيروت. لبنان ١٤٢٣هـ.
- الحارث بن حِلِّزة. **ديوان الحارث بن حلزة**. تحقيق: مروان العطية. دار الإمام النووي ودار الهجرة للطباعة والنشر. ط١. ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.
- حسين. طه حسين. **حديث الأربعاء**. دار المعارف. مصر ١٩٢٥م.
- المرزباني. أبو عبدالله محمد بن عمران. **معجم الشعراء**. تحقيق: ف. كرنكو، مكتبة القدسي، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان. ط٢. ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.
- الإربلّي. إبراهيم بن أسعد الإربلي. **المذاكرة في ألقاب الشعراء**. تحقيق شاكر عاشور، دار الكتب المصرية. القاهرة د. ت.
- الحميري. محمد بن عبد بن عبد المنعم الحميري. **الروض المعطار في خبر الأقطار**. تحقيق: إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة. بيروت. ط٢. ١٩٨٠م.
- عماد الدين الأصبهاني. محمد بن محمد بن نفيس. **خريدة القصر وجريدة العصر**. د. ط. ت
- ابن سلام. محمد بن سلام الجمحي. **طبقات فحول الشعراء**. تحقيق: محمود محمد شاكر. دار المدني، جدة. د. ت.
- المرزوقي. أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن. **الأزمنة والأمكنة**. دار الكتب العلمية. بيروت. ط١. ١٤١٧هـ.
- التجاني الماحي. **تاريخ الطب العربي**. مطبعة مصر. الخرطوم. ط١. ١٩٥٩م.
- ابن يعيش. يعيش بن علي. **شرح المفصل للزمخشري**. دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان. ط١. ٢٠٠١م.
- ابن الأنباري. أبو البركات عبد الرحمن بن محمد. **الأضداد**. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية. بيروت- لبنان ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

- الخطيب التبريزي. أبو زكريا يحيى بن علي. **شرح ديوان أبي تمام**. تحقيق: راجي الأسمر. دار الكتاب العربي. بيروت. لبنان. ط٢. ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.
- الدِّيْنَوَري. أبو حنيفة أحمد بن داود. **كتاب النبات- القسم الثاني من القاموس النباتي**. جمع وتحقيق: محمد حميدالله. المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية. القاهرة. د. ت.
- الزبيدي. محمد بن محمد. **تاج العروس**. دار الهداية للطباعة والنشر. د. ت.
- سُحيم. **ديوان سحيم عبد بني الحسحاس**. تحقيق: عبد العزيز الميمني. دار الكتب المصرية القاهرة ١٣٦٩هـ/ ١٩٥٠م.
- طرفة. **ديوان طرفة بن العبد**. تحقيق: عبد الرحمن المصطاوي. دار المعرفة، بيروت- لبنان. ط١. ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
- العرجي. عبدالله بن عمرو. **ديوان العرجي**. تحقيق: سجيع جميل الجبيلي. دار صادر. بيروت. ط١. ١٩٩٨م.
- لبيد. **ديوان لبيد بن ربيعة**. تحقيق: حمدو طمّاس. دار المعرفة. بيروت. لبنان. ط١. ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.
- لسان الدين بن الخطاب. محمد بن عبدالله. **الإحاطة في أخبار غرناطة**. دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان. ط١. ١٤٢٤هـ.
- المتنبي. أبو الطيب أحمد بن الحسين. **ديوانه بشرح الواحدي**. تحقيق: فريدرخ ديستريصى. دار الكتاب الإسلامي. القاهرة. د. ت.
- المرقشان. **ديوان المرقشين**. تحقيق: كارين صادر. دار صادر. بيروت. ط١. ١٩٩٨م.
- المعرّي. أحمد بن عبدالله بن سليمان. **سقط الزند**. دار بيروت ودار صادر للطباعة والنشر. بيروت ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م.
- الميداني. أبو الفضل أحمد بن محمد. **مجمع الامثال**. تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد. دار المعرفة. بيروت. لبنان. د. ت.
- النويري. أحمد بن عبد الوهاب. **نهاية الأرب في فنون الأدب**. دار الكتب والوثائق المصرية. القاهرة. ط١. ١٤٢٣هـ.
- ياقوت: شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي. **معجم البلدان**. دار صادر. بيروت. ط٢. ١٩٩٥م.